تقرير

**خليل حرب**
khalilharb66@mail.com

# الصين خارج سورها العظيم: ماذا تعني المفاجأة الرائعة؟

**لم تعد الصين مقيدة داخل سورها العظيم الذي حماها من الغزوات طوال قرون. ورغم تبدل نهجها بالانفتاح المتزايد على دول العالم خلال العقود القليلة الماضية، الا ان اهتمامها بمنطقة الشرق الاوسط، التي ترتبط العديد من مصالح دولها تاريخيا، بالقوة العظمى الاولى، اي الولايات المتحدة، هو ما يثير اهتماما استثنائيا**

يستعاد هذا المشهد الصيني المتغير، في ظل الاختراق الديبلوماسي الذي حققته بكين برعايتها التسوية السعودية - الايرانية في 10 اذار 2023، بعد سنوات من القطيعة والتوتر والنيران، بين العاصمتين الاقليميتين الكبيرتين، الرياض وطهران، ما يعني ان المنطقة، والعديد من دول العالم، دخلت في مرحلة الترقب بازاء ما اذا كانت الصفقة الصينية ستكتب لها الحياة، او ان العصي ستوضع في عجلاتها، وبالتالي ما اذا كانت الصين ستكون قادرة على حماية انتصارها الديبلوماسي.

يفتح هذا التساؤل الباب امام محاولة لرسم صورة لطبيعة حركة الصين بالاجمال، فهي اعادت تفعيل "طريق الحرير" التاريخي بنسخة ملائمة للعصر، وتحاول التسيد في عالم المنافسة التكنولوجية، وخاصة في حروب الجيل الخامس. تكتسب هذه الحركة اثارة استثنائية لان الكثير من هذا التمدد الصيني يجري في اتجاه ميادين كان للاميركي الحصة الاكبر فيها، سواء من خلال ريادته العلمية والتكنولوجية التي استمرت طويلا، او من خلال تفوقه العسكري في ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ثم انهيار الاتحاد السوفياتي، او من خلال حلفائه السياسيين وادواته في الحروب الناعمة في انحاء العالم.

لهذا، فان الاميركيين يراقبون، وربما بحذر وترقب، هذا المارد الصيني بينما تتسارع خطواته بعد خروجه من قوقعته التاريخية. في غضون اقل من شهر، اطلقت الصين خطة للسلام في اوكرانيا، ثم فاجأت العالم، بالاختراق الديبلوماسي بين الرياض وطهران. هذا ليست مجرد مصادفات قدرية عابرة بالنسبة الى واشنطن، خاصة وان الرئيس الصيني شي جين بينغ توجها بزيارة دولة الى موسكو بدعوة من الرئيس فلاديمير بوتين، المنخرط منذ اكثر من عام في وحول الحرب الاوكرانية مع الغرب.

صحيح ان مياه كثيرة جرت لتفرض انتقال السعودية من التهديد بنقل المعركة الى عقر دار ايران في العام 2017 بعد سنوات من القطيعة والصواريخ، ولتقرر طهران ايضا ان من مصلحتها القومية، محاولة اغلاق بعض ملفات الملتهبة مع السعوديين، الا ان الحقيقة الثابتة هي ان الصين كانت هناك في الوقت المناسب تماما من اجل قطف الثمار في لحظة نضوجها الملائمة.

يعكس الاتفاق السعودي - الايراني، توغلا صينيا عميقا في شجون المنطقة وازماتها، لأن الاشتباك الاقليمي بين الرياض وطهران ممتد على جبهات وميادين عدة. حتى الرئيس السوري بشار الاسد عندما علق للمرة الاولى على هذا الاتفاق خلال زيارته الاخيرة الى موسكو، قال انه "خطوة ايجابية ومفاجأة رائعة"، وهو تعبير يستدل منه ان تداعياته على المنطقة عامة، وسوريا بشكل خاص، ستكون كبيرة.

سوريا نفسها، تذوقت "نكهة" الدور الصيني المتصاعد في المنطقة. فما بين عامي 2011 و2017، في عز الحرب في سوريا، وعليها، استخدمت الصين حق النقض "الفيتو" في مجلس الامن الدولي 6 مرات، للتصدي لقرارات تتعارض مع مصالح سوريا. ولفهم معنى ذلك، فانه من المهم الاشارة الى ان الصين لم تستخدم الفيتو طوال تاريخ وجودها في مجلس الامن منذ عقود عدة، سوى 13 مرة (بينهم 6 مرات حول سوريا).

لم يكن موقف الصين اعتراضيا فقط في ما يتعلق بالحرب السورية، وهي طرحت في بدايات الازمة رؤيتها الخاصة للحل السوري في العام 2012، ثم طرحت خطة الـ5 مبادئ في العام 2014، وخطة رباعية في العام 2021، وهو تتابع تقول الصين من خلاله، انها حاضرة هنا في قلب الازمة ومهتمة بمعالجتها. وتتلاءم افكار هذه الخطط الصينية مع رؤية بكين ومبادئها، والاهم بينها احترام سيادة سوريا وسلامة اراضيها، وهي عبارة يمكن نسخها وعبّرت بكين عن ذلك من خلال وثيقة سياسة الصين تجاه الدول العربية التي اعلنتها في العام 2016، وحددت فيها مجموعة من المرتكزات والمنطلقات في سياستها الخارجية مع العالم العربي وقضاياه. وركزت على مجال الطاقة كمحور رئيسي الى جانب مشاريع البنى التحتية وتسهيل التجارة والاستثمار والطاقة النووية والفضاء والاقمار الاصطناعية ومجالات الطاقة البديلة والنظيفة. لكن الوثيقة تؤكد ايضا على تعهدات صينية باحترام متبادل للسيادة ووحدة الاراضي، وعدم الاعتداء، وتجنب التدخل في الشؤون الداخلية، والمساواة والمصالح المتبادلة، ومساندة عملية السلام في الشرق الاوسط بدعم اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة الكاملة على حدود العام 1967 وعاصمتها القدس الشرقية، اضافة الى حل القضايا الساخنة في المنطقة بطرق سياسية ودعم اقامة منطقة خالية من الاسلحة النووية.

المهم بالنسبة الى الصين ان مثل هذه الوثيقة وغيرها من التفاهمات والاتفاقيات، ساهمت في رفع مستوى العلاقات التجارية مع العديد من دول المنطقة، بمستويات ليست عادية، تجسدت مثلا في اعمال القمة الصينية - العربية التي استضافتها السعودية في كانون الاول 2022 بحضور الرئيس الصيني شي جين بينغ، فيما قال وزير الخارجية السعودي فيصل بن فرحان ان القمة شكلت نقطة انطلاق للعلاقة بين المنطقة والصين.

الحرص الصيني الى معالجة ملفات التوتر التي تؤرق العلاقات السعودية مع ايران، يمكن فهمه ايضا من خلال فكرة ان السعودية ورغم مراعاتها لعلاقتها مع واشنطن، الا ان ذلك لم يمنعها من السعى لتنويع اقتصادها والانفتاح بشكل اكبر على اسواق جديدة وتحديدا في الصين. فيما يقول مراقبون ان من بين اسبابه البرود في العلاقة مع الادارة الاميركية الحالية، حين كان الرئيس جو بايدن تعهد في حملته الانتخابية بجعل المملكة دولة منبوذة، لكنه اتاها زائرا في تموز 2022، متلمسا امكان استغلال ثقلها النفطي من اجل الحد من تأثيرات الحرب الروسية - الاوكرانية، واغراق الاسواق العالمية بالنفط، لضرب المردود المالي الذي تحققه موسكو بعد ارتفاع الاسعار عالميا بسبب الحرب.

من المهم الاشارة ايضا الى دعوة الصين وروسيا الى توسيع اعضاء مجموعة بريكس، لكي تكون السعودية جزءا منها، وفي هذا الاطار منحت الرياض صفة شريك حوار ضمن منظمة شنغهاي للتعاون، والتي تعد الصين ابرز اركانها. لا يقتصر التقارب الصيني - السعودي على ذلك، ففي العام 2022، اتخذت شركة ارامكو قرارا استثماريا ببناء مصفاة ومجمع للبتروكيميائيات بـ10 مليارات دولار في شمال شرق الصين، مما وصف بانه اكبر استثمار منفرد لها في الصين.

كما لا يقتصر الامر على مجال الطاقة، اذ ان السعودية وقعت مع شركة هواوي مذكرة تفاهم وبناء مجمعات عالية التقنية ◄

**الصين تعيد تفعيل "طريق الحرير"**

**هل توضع العصي في عجلات الانجاز الصيني؟**

في المملكة، علما ان الشركة تفرض عليها واشنطن عقوبات ضمن صراع الجيل الخامس في مجال التكنولوجيا مع الصين.

الحرص الصيني على ابرام التفاهم بين الرياض وطهران، يؤكد رؤيتها لهما كمرتكزين اقليميين، وهو يبرز ايضا من خلال ما تظهره الاتفاقات المبرمة بين بكين وطهران. وتحتل ايران موقعا جغرافيا مهما بالنسبة الى خرائط طرق الحرير الجديدة، فهي بوابة العبور البري نحو البلاد العربية وصولا الى سواحل شرقي البحر المتوسط، وهو كما يقول الخبراء، احد اسباب الاهتمام الاميركي بمحاولة تطويق طهران، اي السعي الى قطع الطريق امام تمدد الصين واستكمال مشروعها.

الاتفاق التاريخي بين بكين وطهران وقع في اذار 2021، وهو تعاون شامل بقيمة 400 مليار دولار، وذلك تحت عنوان "برنامج التعاون الشامل بين جمهورية الصين الشعبية والجمهورية الاسلامية الايرانية"، او ما يعرف بمعاهدة الـ 25 عاما، حيث يؤكد الاتفاق على التفاعل الاقتصادي والثقافي بين الطرفين، وهو يدخل ايران بشكل مباشر في مبادرة الحزام والطريق الصينية، التي تهدف بكين من خلالها الى بناء شبكة واسعة من مشروعات البنى التحتية الممتدة من شرق اسيا الى اوروبا.

ان الابواب مشرعة امام تعاون الصين مع ايران في المجالات الاقتصادية والصناعية والعسكرية، وضمان استيراد الصين المستمر للنفط الايراني، وتطوير شبكات سكك الحديد والطرقات السريعة والبرية والبحرية والجوية. الى ذلك، يراقب الاميركيون ايضا تطور علاقات الصين مع العراق. ففي شباط 2023، اعلن البنك المركزي العراقي، موافقته على استخدام اليوان الصيني كعملة لاستيراد منتجات من الصين، وهو اجراء اتخذته الحكومة بهدف دعم استقرار الدينار العراقي، وتسهيل التعاملات بين البلدين. في العام 2018، استوردت الصين 27% من الحجم الاجمالي للنفط العراقي المصدر، ودفعت 22 مليار دولار من اجمالي 83 مليار دولار من العائدات التي حققها العراق، فيما ارتفعت النسبة الى نحو 44% في العام 2022، لتحتل الصين بذلك المرتبة الاولى عالميا في استهلاك النفط العراقي. في اذار 2023، حصلت ثلاث شركات صينية على عقود نفطية ضمن جولة التراخيص طرحتها بغداد، بينما تجاوز حجم التبادل التجاري بين الصين والعراق 53 مليار دولار خلال العام 2022. ويختصر السفير الصيني لدى بغداد تسوي وي، ما يجري بين بكين وبغداد بالقول ان "العراق يعد بالنسبة الى الصين اكبر دولة من حيث العقود، وثاني شريك من حيث النفط الخام وحجم التبادل التجاري".

## المنتدى الصيني - العربي

**بحسب منتدى التعاون الاقتصادي الصيني العربي، فان حجم التبادل التجاري بين الصين ودول الشرق الاوسط، بلغ حوالى 507 مليارات دولار في العام 2022، وانه بعد تسجيل رقم قياسي جديد من النمو بزيادة 35.7% في العام 2021، تحافظ التجارة بين الصين ودول الشرق الاوسط على مستواها العالي ونموها السريع. وازداد حجم التبادل التجاري بين الطرفين في العام 2022 الى اربعة اضعاف ما كان عليه قبل 15 عاما.**

تجري خلال السنوات الماضية الكثير من المقارنات بين طبيعة النفوذ والدور الاميركي في المنطقة والمرتكز بشكل اساسي منه على القواعد العسكرية المنتشرة، وبين التغلغل الصيني في المنطقة ذاتها، وانما من ابواب الاقتصاد والمال والمشاريع الاستثمارية المتبادلة. وبينما تتوسع الصين نحو دول مثل السعودية وايران والعراق وغيرها من دول المنطقة، فان واشنطن توسع الحضور الاميركي في شرق اسيا، وخاصة في الحزام الامني المحيط بشكل مباشر بالصين، بما في ذلك تايوان. وبينما تطلق بكين مبادرة سلام سياسية نحو المستنقع الاوكراني بالدعوة الى التخلي عن عقلية الحرب الباردة، تقوم واشنطن، وحلف الناتو بتكثيف امداد كييف بالسلاح. وبينما يذهب شي جين بينغ الى القمة العربية - الصينية، يذهب جو بايدن من بعده الى القمة الاميركية - الافريقية، في محاولة لوقف التمدد الصيني في القارة السمراء حيث وصلت التجارة بين بكين والدول الافريقية في العام 2021 الى اكثر من 254 مليار دولار.

ولهذا، فان السؤال هنا يتعلق بما اذا كان الحضور الصيني المتزايد في الشرق الاوسط سيكون عاملا مساعدا لخلق توازن مع الحضور الاميركي؟ وهل في امكان الحكومات العربية الاستفادة من هذا التنافس لتوسيع خياراتها السياسية والاقتصادية، خارج الفلك الاميركي؟